تضحية أم

عندما كنت فى السادسة عشر من عمري ، التقيت بها على شاطئ البحر ، كانت فى مثل عمري تماما ، جميلة ، مرحة ، رقيقه ، ذات شخصية قوية ، محبوبة ، و متفوقه فى دراستها .. اقتربت منها و تحدثت إليها .. سرنا على الشاطئ ، لعبنا بالماء ، شعرت أننى أعرفها منذ سنوات ، نشأت بيننا صداقة قوية ، و قررنا أن تستمر هذه الصداقة مدى الحياة ، لذلك طلبت منها أن تلتقى أسرتى مع أسرتها لتزداد روابط المحبة والألفة ، فرحت و رحبت بذلك ...

التقت الأسرتان و بدأ التعارف و قلت : " هذه صديقتي " هايدي " و هذه والدتها " تانت ...." ، و صمت لحظة لأني لا أعرف اسمها، و لأنقذ نفسي من حيرتي قلت منعا للخطأ و الحرج ، كل عائلة تقدم نفسها ، و بدأت بنفسي فقلت : " و أنا " هالة " و هذه أمي الحبيبة ، و الجالسة هناك فوق الرمال أختي الصغيرة " عفاف " .

و هنا تكلمت والدة " هايدى " قائلة " هذه ابنتي " هايدى " ثم أشارت إلى شاب رقيق خجول ، كان جالسا إلى جوارها ، يبدو عليه الإرهاق و الإعياء قائلة :

" هذا ولدي الحبيب الوحيد " كمال " إنه قرة عيني لا يفارقني لحظة واحدة " .

حقا كان " كمال " لا يفارق أمه لحظة واحدة ، دائما كظلها إذا تحركت تحرك ، إذا جلست جلس إلى جوارها ليقرأ الكتب و المجلات ، و يناقشها فيما يقرأ . تعجبت كثيرا لإختلاف شخصية " هايدى " عن أخيها " كمال " .

كان المفروض أن يكون " كمال " ، هو المنطلق ، الجرئ ، لأنه هو الكبير ، و تكون " هايدى " هى المنطوية ، الخجولة ، و لكن هذا الأمر لم يشغلني كثيرا ، المهم أن نستمتع بإجازة الصيف الجميلة ...

منذ هذه اللحظة لم نفترق ، نخرج معا ، نلعب معا ، ننزل البحر سويا ، نتناول الطعام معا لم نفترق إلا ساعات النوم فقط .

لم يبق غير ليلة واحدة و نعود إلى " القاهرة " ، ذهبت إلى " هايدى " و اتفقت معها على أن نلتقي في " القاهرة " و تظل صداقتنا دائما .

رحبت تانت " ثريا " بذلك ، و تقرر أن تكون الليلة الأخيرة ليلة مرح و سعادة ، و أن نلتقي جميعا على العشاء .

بعد تناول طعام العشاء ، جلسنا جميعا نستمتع باحتساء الشاى اللذيذ من صنع صديقتي " هايدى " ، و تناول بعض قطع الحلوى ، و لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ....

و فجأة دخلت أختي الصغيرة " عفاف " و قالت و براءة الأطفال فى عينيها : " هايدي " هل أنت ابنة متبناة لهذه الأسرة ؟ .

و ساد المكان صمت رهيب ، قاتل ، و بدأ كل منا ينظر إلى الأخر ولكن أختي استمرت فى الكلام ، و هى تهز " هايدى " من كتفها و تقول : " هل هذه حقيقة أم السيدة " عنايات " جارتكم كاذبة !؟.

السيدة " عنايات " صديقة تانت " ثريا " و جارتها في القاهرة ، و في المصيف أيضا سيدة ثرثارة ، كثيرة الكلام ، تعلّق على كل شيء تراه ، و تسأل أسئلة كثيرة ، لم تسترح إليها " أمى " ، و كانت تحذرني من الجلوس إليها أو التحدث معها .

وقفت " هايدي " بثقة و الابتسامة تملأ وجهها الصبوح و دفعت شعرها الأسود الجميل إلى الخلف وقالت بابتسامتها المعهودة :

" هذه حقيقة و السيدة " عنايات " ليست كاذبة ، لقد أراد أبواي – و أشارت إلى والدتها - أن يكون لهما طفلا آخر ، ليشارك ولدهما الوحيد " كمال " اللعب و المرح ، فذهبا إلى دار للأيتام ، و تفرّسا وجوه الأطفال جميعا ، ثم قالا لصاحبه الدار" نريد هذه الطفلة الجميلة .... " أنا " ... و أشارت إلى نفسها " .

عندئذ استجمعت تانت " ثريا " والدة " هايدي " شجاعتها ، وأكملت الحديث و هي تبتسم :

" حقا لقد زرنا دوراً كثيرة ، و ترددنا كثيرا أنا و زوجى قبل أن نأخذ هذا القرار ، و لكن في النهاية رأينا طفلة جميلة ، فلم نستطيع أن نقاوم سلطان جمالها " .

اندفعت " هايدي " قائلة بمرح : " كنت صغيرة جدا – فى ذلك الوقت – و لكني علمت فيما بعد من السيدة " عنايات " جارتنا أن صاحبة الدار لم تفرط فىّ بسهولة ، و لم يأخذاني إلا بعد جهد ، و محاولات ، و تقديم أوراق و مستندات ، و اقتربت من تانت " ثريا " و وضعت قبلة على خدها و ضمتها تانت " ثريا " إلى صدرها و هي تقول :

" الغالي غالي من يومه ، المهم لقد ظفرنا بك ، و أدخلت البهجة و السعادة و السرور على حياتنا " .

اقتربت " هايدي " من والدتها ، و جلست إلى جوارها و هي تقول : " أنت ست الحبايب ، لم أشعر للحظة واحدة إنني ابنة متبناة ، لقد أحببتكم جميعا ، و شعرت بالراحة و الرعاية و السعادة و الحنان و الأمان بينكم ، و أحببت أخي " كمال " حباً كبيراً ، حتى والدي (رحمة الله عليه) كان يدللني كثيراً ، و يحقق كل رغباتي و متطلباتي ، و لم يبخل عليّ يوماً ما ، كم أنا سعيدة يا أمي لوجودي بينكم " .

أخذت " هايدي " و أختي الصغيرة " عفاف " و جلسنا فى الشرفة لنبتعد عن هذا الموضوع ، و تركت أمي التي كانت صامتة طوال الوقت لتستمتع بالحديث مع صديقتها الجديدة والدة " هايدي " ..

انتهت إجازة الصيف ... وعدنا إلى منزلنا بالقاهرة ، و بعد عدة أيام دق جرس التليفون ، و كانت المتحدثة صديقتي " هايدي " ، تطلب مني أن أذهب لزيارتها.. و قضاء يوما معها .

استأذنت " أمي " فرحبت كثيرا بالفكرة ، و طلبت مني أن تزداد صداقتي لها ، و لا تكون مثل صداقات الصيف التي تنتهي سريعا .

و لا بد أن تكون بيننا زيارات متبادلة و لقاءات متكررة حتى تزداد روابط المحبة و الألفة .. ترددت

كثيراً ، و لاحظت " أمي " ذلك ، و عندما سألتني " أمي " عن سبب حيرتي ، لم أنطق .. فطلبت مني أن أجلس قليلا لنتحدث معا فى أمر هام جداً على شرط إلا أبوح به لأحد ، و جلست لأستمع و كانت المفاجأة.

قالت أمي : " بعد أن ذهبتم جميعاً إلى البحر ، جلست لأتحدث مع والدة " هايدي " ، و ألوم على علاقتها بالسيدة " عنايات " جارتهم التي كشفت السر لابنتي " عفاف " .

عندئذ قالت والدة " هايدي " السر لا يعيش مختفيا لآخر العمر، لابد أن يأتي يوم ليذاع فيه ..

و الحقيقة أن " هايدي " هى ابنتنا الحقيقية و " كمال " هو الطفل المتبنى ، لقد كان زوجى طيارا و يسافر كثيرا ، و يتركني بمفردي فدمرتني الوحدة ، و طلبت منه أن نتبنى طفلا يملأ فراغ حياتي و يؤنس وحدتي ، و كان هذا الطفل هو " كمال " .

و مرت عدة سنوات ، و عندما بلغ السادسة من العمر، أصيب بمرض شديد خرج منه ضعيف البنية هزيلاً فازدادت عنايتي به ، و كان زوجي يقوم بتدليله كثيراً و في ذلك الوقت، شعرت أنني حامل .. رزقنا الله (عز و جل) بطفلتنا الجميلة " هايدي "، كانت أملنا و فرحتنا و حلمنا فى الحياة .. و فرح " كمال " فرحا

شديدا لقدومها ، و بدأت الحيوية و النشاط يدبان فى جسده الهزيل الضعيف و هو يحمل أخته و يداعبها ، و زادت سعادتنا و نحن نرى أولادنا ينعمان بالحب و السعادة بيننا ، و كنا كثير التنقل من مكان إلى مكان ، و لكن بعد رحيل زوجى بعدة أشهر، زارتنا جارتنا " عنايات " لتقديم واجب العزاء .

وعندما شاهدت الطفلين هشت و بشت و قالت بفرحة :

" ما أجملهما .. أيهما المتبنى يا " ليلي " ؟

فغمزت لها بعيني فغيرت مجرى الحديث ، و لكن الطفلين سمعاها ..

فلما غادرت المكان جلس الطفلان بجوارى مستفسرين فاحتضنتهما ، و نظرت إليهما طويلا ، فوجدت الأعياء و الإرهاق على وجه " كمال " ، بالإضافة إلى الانطواء الذي أصابه منذ رحيل زوجي ، أما " هايدي " فكانت تستمتع بالحيوية والنشاط ، و المرح و الصحة الجيدة ، و قوة الشخصية ، و أحسست بغريزتي ، أنها لن تشعر بالغيرة من " كمال " ، فأشرت إليها و قلت بمرح " هذه طفلتنا الجميلة المتبناة يا " كمال " .

ابتسم " كمال " ، و وضع قبلة على جبين أخته ، و قبلة أخرى على خدي و هو يقول :

" أنني أحبها جداً يا أمي و هذا لن يغيّر ما بيننا "
و ابتسمت " هايدي " و قالت بمرح :
" هذا الموضوع لا يقلقنى ، المهم أنني أحبكم ، و أعيش سعيدة جدا في ظل رعايتكم " .
عندئذ اندفعت قائلة لأمي :
" مسكينة " هايدي " لماذا قالت أمها هذا الكلام ، و هي ابنتها الوحيدة و فلذة كبدها ، لماذا تحرمها من أمومتها ؟ " .
أشارت أمي بيدها علامة النفي ثم قالت :
" سألت والدة " هايدي " نفس السؤال فأجابت قائلة :
" هايدي " أبنتي و فلذة كبدي ، أحبها حباً شديداً بالفطرة .. الغريزة و لم أقصر فى حقها لحظة واحدة ، أما " كمال " ابني بالتبني أحببته كثيراً ، و خاصة بعد رحيل زوجي كان غلاماً ضعيفا هزيلا ازداد مرضه بعد رحيل والده " زوجي " و لو أخبرته أنه الطفل المتبنى ، لقضيت عليه تماماً .. فكان من الواجب عليّ أن أفعل ما فعلت ، ففي ذلك حياته ، و عزة نفسه و كيانه ، أما " هايدي " فكانت طفلة قوية معتمدة على نفسها ، لها شخصية قوية ، مرحة .. محبوبة من الجميع ، لن يزلزلها شيء .

و مرت الأعوام و علاقتي ما زالت قوية مع صديقتي " هايدي " ، و أنهيت دراستي الجامعية ، و تزوجت و رحلت مع زوجي لاستكمال دراسته بالخارج ، و تزوجت أختي الصغيرة " عفاف " أيضا .

و رحلت أمي الحبيبة عن عالمنا و رزقنا الله (عز و جل) بطفلتين أسميتهما " عفاف " و " هايدي " ، هايدي صديقة عمري لم تفارقني لحظة واحدة ، كانت صورتها معلقة على جدران غرفة البنات " .

و بعد عدة سنوات عندما عدنا إلى القاهرة ، نزلنا بأحد الفنادق الكبيرة ، حتى نجد السكن المناسب ، و تقدمت منا مديرة الفندق ، سيدة رشيقة و أنيقة عذبة الحديث ، ذات وجه مبتسم ، رحبت بنا و استفسرت عن مطالبنا ، و ربتت على كتف ابنتي الصغرى و قالت لها :

" ما اسمك أيتها الجميلة " ؟

قالت ابنتي :

" اسمي " هايدي "

انحنت السيدة الرقيقة ، و وضعت قبلة على خدها ، و هي تقول :

" توأم اسمي .. أنا اسمي " هايدي " ، و سوف تنشأ بيننا صداقة قوية " .

عندئذ تفرست فى وجه السيدة الجميلة ، و اقتربت منها ، و همست في أذنها قائلة " هايدي محمود المنياوي " ، هزت رأسها بالموافقة فقلت لها :

" هالة أبو العز عبدالله " ، سيدى جابر و المنتزه و ميامي و كيلوباترا، و تعانقنا و اتفقنا على اللقاء فى المساء .

و في المساء التقينا ، و جلست أنا و صديقتي " هايدي "، نسترجع ذكريات الماضي البعيد ، و بين الحين و الحين تراودني فكرة أن أخبرها بالحقيقة التي تركتها لي أمي ، و لكن لا ..... لقد وعدتها و عاهدتها قبل رحيلها ألا أبوح بالسر لأحد ..

تنهدت ، ثم قلت ما أخبار أخيك " كمال " و أين يعمل الأن ؟ هل تزوج و أنجب أولاداً مثلك ؟ و هل و هل و هل أسئلة كثيرة ؟؟؟ .....

نظرت إليّ طويلا ثم قالت بحزن :

" لقد رحل " كمال " عن عالمنا منذ أكثر من عشر سنوات ، لقد كانت دنيا " كمال " هى أمه ، تخرج في كلية الفنون الجميلة ، حساس رقيق كان يقضي معظم وقته في مرسمه ليلاً و نهاراً منطوياً .. لا يكلم أحداً ، و لا يترك الفرشاه من يده .. ترك لنا صورا جميلة لن تتكرر..

عندما ماتت " أمي " لم يتحمل جسمه الهزيل الحزن ، رحل بعدها بعدة أشهر، و تزوجت و رزقني الله (عز و جل) بطفل جميل أسميته " كمال " و أخرجت من حقيبتها صورة الطفل ، و هى تقول : إنه الأن في السادسة من عمره يعشق الرسم مثل خاله " كمال " .

أخذت أتململ فى جلستي ، أريد ان أخبرها بالسر ، لتهدأ نفسي و يستريح ضميري ، طالما رحل " كمال " عن عالمنا ، فلماذا لا أبوح بالسر ؟ .

و بدأت أتمتم بكلمات غير مفهومة لم يسمعها أحد غيري ، يجب أن تعرف الحقيقة الأن .. و شعرت " هايدي " بما أنا فيه كأنها تقرأ أفكاري ، فابتسمت ثم قالت :

" هناك سر يجب أن تعرفيه يا " هالة " " كمال " ليس أخي من أمي و أبي إنه أخي بالتبني ، ابتسمت بفرحة و قلت :

" الحمد لله لقد استراح قلبي متى علمت ذلك ؟

قالت " هايدى " :

" لقد أخبرتنى " أمي " بالحقيقة قبل رحيلها ، و قدمت لي جميع الأوراق التي تثبت صحة كلامها ، و طلبت مني أن أخفيها عن " كمال " ، لأنه مريض و

يجب أن أعتني به ، لأنه " أخي " الوحيد .. و كنت أحبه كثيراً وأكملت حديثها قائلة :

" فرحت لحظتها فرحاً شديداً ، و أحببت " أمي " أكثر من ذي قبل ، و أدركت ما كانت تعانيه من آلام ، خلال تلك السنوات الطويلة ، و هي تراني أكبر أمامها ، و لا أعرف الحقيقة ، و فضلت أن تمنح الطفل المتبنى ، مكانة فلذة كبدها حتى لا تمزق مشاعره الرقيقة ، و قلبه الضعيف . و وعدت " أمي " برعايته و السهر على راحته ، لدرجة أنني لم أتزوج إلا بعد رحيله عن عالمنا .

فى هذه اللحظة اقترب منا طفل رقيق جميل يناديها " ماما " قدمته لي و هي تقول " كمال " حبي الكبير و الصغير.